المفاهيم النفسية الأساسية فى القرآن الكريم
وخطـــورة الإصطـلاح

للاستاذ الدكتور حسن الشرقاوى
رئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية

مقدمـــة

لاشك فى أن القضايا التى يدعو (المعهد العالى للفكر الإسلامى) لمناقشتها فى هذه الندوة ، قضايا على جانب كبير من الأهمية .. خاصة وأنها تأتى فى الوقت الذى انبهر فيه الكثيرون بالتقدم التكنولوجى فى العالم الغربى ، فاعتقد المستغربون أن التقدم فى مجالات العلوم المختلفة إنما يكون بتطبيق النظريات الغربية ، حتى فى العلوم الحياتية والسلوكية ، ولم ينتبهوا الى أن التقدم فى العلوم المسخرة شىء ، وأن المنهج فى العلوم الحياتية ـــ كالاخلاق والتربية وعلم النفس ـــ شىء آخر .. كما قال عز من قائل : « لكل جعلنا منك شرعة ومنهاجا »[1] .

ولما كان الإسلام هو منهجنا الذى جعله الله لنا ، فان الأساس الذى تهدف اليه شريعتنا فى تطبيقاتها على جميع الأنشطة الانسانية ، هو تحقيق الوسط العدل[2] ، سواء فى الفكر أو السلوك أو الأخلاق .. فقد أمرنا الله عز وجل باتباع صراطه المستقيم ، الذى هو الخير الفاضل والعدل ، فقال تعالى :

* وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط .. المائدة/٤٢
* وكذلك جعلناكم أمة وسطا .. البقرة/١٤٣
* ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .. الاسراء/٣٩
* وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين .. الاعراف/٣١

ولا يقوم منهجنا الإسلامى على الفكر الذاتى واتباع هوى النفس ، وإنما يستمد من الهدى الربانى واتباع ما أمر به الحق تعالى فى كتابه العزيز وفى سنة نبيه . فهو منهج رأسى أفقى ، يقوم على الاستمداد من منابع الحكمة الإلهية ، وذلك هو الجانب الرأسى . ثم النظر الى حقائق الكون والنفس على ضوء الامداد الربانى

---

(١) سورة المائدة . آية ٤٨

(٢) راجع : نحو منهج إسلامى ص ٣٨ وما بعدها

الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك هو الجانب الأفقى من المنهج .

ومن هذا المنهج الإلهى ، تبرز قضيتنا اليوم ، حول تحديد المفاهيم الاساسية فى مجال النفس الانسانية .. لأن معالجة هذا الموضوع لا يمكن أن تخضع للمنهج الغربى ، الذى يهددها بالوقوع فى الاجتهاد الذاتى والتأويلات الفردية النابعة من الهوى والظن .. وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وتتضح المفاهيم النفسية الاساسية ، من خلال المنظور القرآنى لحقيقة النفس الانسانية .. وليس من خلال نظريات فرويد أو غيره والتى تقوم على فكرة الصراع . وتكوين الشخصية فى السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل[1] ، وليس من خلال فكرة اللاشعور التى جعل منها اليهود ضربة موجهة لعقل الانسان وارادته الواعية[2] ، وليس من خلال قدرية الحتمية النفسية التى جعلها علم النفس الغربى كميراث مفروض وقدر محتوم لا يستطيع الانسان منه خلاصا[3] . فقد اتضح أن علماء النفس الغربيين لا يدرسون النفس ، وإنما يدرسون السلوك النفسى فحسب ، ولهذا فان معارفهم حول حقيقة النفس الانسانية وأوصافها وخصائصها ، هى مجرد دراسة متواضعة للمظاهر النفسية تعتمد على التخمينات والاجتهادات الذاتية .. أما علم النفس الإسلامى ، فهو يستقى من كتاب الله ومن هدى النبوة ، وشتان بين نبع الحكمة الإلهى وبين شطحات الفكر الذاتى .. ففى حين يقول عز من قائل (ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها) يقول اصحاب مدرسة الشخصية والتحليل النفسى ، وعلى رأسهم فرويد أن القانون الذى يحكم دنيا النفس هو قانون الغاب ، الذى يقرر أنه اذا لم تتذئب أكلتك الذئاب[4] .

---

(١) د. سجموند فرويد : الموجز فى التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على ص ١٦ ، ١٠٧ .
(٢) د. صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ص ١٠ــ١٥ .
(٣) د. سيد غنيم : سيكلوجية الشخصية ص ٢٨ــ٤٣ .
(٤) د. حسن الشرقاوى : نحو علم نفسى إسلامى ، ص ٣٢ .

وفى الوقت الذى يلقى فيه علم النفس الغربى محنته الكبرى التى عبر عنها ايزنك Izink بقوله : ان معدل شفاء العصابيين ثابت فعليا ، سواء عولجت بأساليب العلاج النفسى المعروفة أو تركوا دون علاج[1] .. فى هذا الوقت هدانا الله لاستكشاف موضوعات علم النفس الإسلامى الذى يقوم على مفاهيم راسخة للنفس الانسانية ، وردت فى كتاب الله وفى أحاديث الرسول ﷺ فكانت المنهج الذى اتبعه الحكماء من أئمة هذه الأمة من أمثال الحكيم الترمذى والمحاسبى والامام الغزالى وغيرهم كثير ، فاتضح لنا أن علم النفس الإسلامى لا يكتفى فقط بعلاجات الاضطرابات النفسية ، بل هو أيضا (علم وقائى) يحول دون وقوع هذه الاضطرابات أصلا ، بما يشير اليه من تحقق الأمن النفسى بالرجوع الى صفاء الإيمان .. فكانت حصيلة هذه الدراسة ، كتابنا (نحو علم نفس اسلامى) الذى لقى قبولا واهتماما واسعين ، وتواترت بعده كتاباة عدة فى هذا الميدان الرحب من ميادين الثقافة الاسلامية .

المفاهيم النفسية والاصطلاح :

يذهب بعض المفكرين الى انكار أهمية الاصطلاحات ، ويقولون عبارة مشهورة تتردد كثيرا فى كتاباتهم وأقوالهم ، تقول العبارة (لا مشاحة فى الاصطلاح) حتى كادت هذه المقولة تكون احدى مبادىء البحث العلمى .. لكننا من جانبنا نرفض هذا المعنى بشكل قاطع ، فالاصطلاح هو المرحلة الأخيرة لاستقرار دلالة معينة فى الاذهان ، وهذه الدلالة بدورها ترتبط بالكثير من المفاهيم المتداخلة مع الاصطلاح .. فاذا كان هذا الاصطلاح ينطوى على خلل معين فى التصورات ، انتقل هذا الخلل الى بقية المفاهيم .

ولذلك فقد أردنا طيلة السنوات الماضية ، أن نضع مجموعة من الاصطلاحات المرتبطة بالمفاهيم الأساسية فى الكتاب والسنة ، حتى نتقى الوقوع فى مخاطر الاصطلاح الغربية التى تلقفها بعض المستغربين من الفكر الغربى دون تمييز ، فكانت لهذه المصطلحات الغربية أثرها الكبير فى تضليل الفكر .

---

(١) ايزنك : الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة قدرى حنفى ص ١٥٨ .

ولما كان موضوعنا اليوم مرتبطا بالمفاهيم النفسية ، فسوف نقتصر على عرض بعض الاصطلاحات الخاصة بعلم النفس الإسلامى ، مع مقارنتها بالمصطلح الغربى .. حتى يتضح بذلك الفارق بين المفهومين :

١ــ الزاجر .. لا الضمير :

اصطلاح الضمير ، بشقيه النفسى والاخلاقى ، مأخوذ من كلمة Conscience وليس له أصل فى الشريعة الإسلامية .. وقد تسبب هذا المصطلح فى العديد من أخطاء البحث فى العلوم النفسية والتربوية ، لما ينطوى عليه من غموض[١] . ونظرا لهذا الخلط الكبير فى مفهوم هذا المصطلح الغامض (الضمير) فان كثيرا من المظالم ارتكبت بأسمه ، فبعض البلدان تقتل غيرها بوحشية باسم الضمير الحر .. وبعض الناس يقيمون هذه المباريات الوحشية والعروض اللاانسانية ، تحت دعوى المخاطرة والمغامرة وضمير التحضر اللاواعى ولذلك فنحن نتسائل : اذا كان الضمير هو الأساس السليم للسلوك الانسانى ، فكيف ترتكب باسمه هذه الفظائع ؟ واذا كان الضمير كافيا ليعلم الانسان طريقه الصحيح ، فلم بعث الله بالانبياء مبشرين ومنذرين ؟ فاذا كان مصطلح (الضمير) غير صالح ليكون حكما عادلا يجعل من صاحبه بالضرورة أخلاقيا ، فلابد وأن ندعو الى مصطلح اسلامى بديل .. نستمده من تأمل آيات القرآن الكريم . وهذا المصطلح هو (الزاجر) فالزاجر كما ورد فى الآيات البينات ، قوة فى الانسان تحدو به الى مجانبة المعاصى ، وتبتعد به عن كل ما يخالف الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها[٢] . وفى قوله تعالى :

★ والزاجرات زجرا .. الصادقات/٢

★ ولقد جاءهم من الانبياء ما فيه مزدجر .. القمر/٤

فالزاجر واعظ فى القلب يهتف به للسير فى طريق الاستقامة ، ويرشده لسلوك سبيل الحق وينجو به من الأهواء والمعاصى .. ولهذا فنحن نرفض مصطلح الضمير

(١) راجع : نحو منهج إسلامى ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) راجع معنى (الزاجر) فى كتابنا : الفاظ الصوفية ومعانيها .

بما يشتمل عليه من دلالات نفسية وخلقية غامضة ، ولما اقترن به من التباس وابتعاد عن الصدق والوضوح ، لنستخدم هذا المصطلح والمفهوم القرآنى : الزاجر .

٢ــ كظم الغيظ .. لا الكبت :

يذهب علماء النفس الغربى وعلى رأسهم فرويد الى تقرير مفهوم للشخصية يقول بأن هذه الشخصية الانسانية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفرد الداخلية (الغرائز) وبين العالم الخارجى (الموضوعات)[١] ، وخلال هذا التفاعل يقوم الفرد باختزان العديد من الخبرات عن طريق « الكبت » ، فيلقى بها فى مستودع المكبوتات : اللاشعور . وبالرغم من أن النظريات الجديدة فى علم النفس قد أغفلت تماما الجانب اللاشعورى ، ولم تعد تعترف به . فان مصطلح الكبت ظل مستخدما فى أعمال العديد من المفكرين المستغربين مما أدى بهم الى الاعتقاد بأن الانسان مغلوب على أمره ، وأن الحتمية النفسية هى قدره المحتوم[٢] .

أما المصطلح الاسلامى ، والمفهوم القرآنى الذى نستبدل به مصطلح الكبت ، فهو الصبر وكظم الغيظ .. فقد جاء فى الآيات الكريمة :

★ واصبر حتى يحكم الله .. يونس/١٠٩

★ ان الله مع الصابرين .. البقرة/١٥٣

★ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. آل عمران/١٣٤

وهناك العديد من الآيات القرآنية التى تشكل فى مجموعها المفهوم الإسلامى للصبر وكظم الغيظ .. حيث تتجلى حقائق الصبر وقدرة الانسان عليه ، فالانسان قادر على الصبر وكظم الغيظ ، بالعزم ومخالفة النفس واتباع العقل والوسط العدل ، وحين يصبر الانسان ويكظم غيظه ، يكون قادرا على الغضب

(١) فرويد : الموجز فى التحليل النفسى ص ١٤ .

(٢) ك. هوك : نظريات الشخصية ، ترجمة د. أحمد فرج ــ مراجعة د. مليكة ، ص ٢٩ــ٣٤ .

والثورة والأذى ، لكنه فى موقف اختيار .. فيختار الافضل والاصلح[1] . فهنا يكون الفعل واقعا عن وعى الفرد وادراكه لثمرة هذا الفعل ، وليس الأمر ناشئا عن الحتمية النفسية التى يقررها علماء النفس الغربيون وعلى رأسهم فرويد . ان الصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، وليس موقفا مرضيا أو عصبيا .

وأخيرا فان الصبر ليس موقفا سلبيا كالكبت ، فالصابر ليس مغلوبا على أمره ، وإنما هو صاحب موقف ايجابى يسمو على الاحداث ، ويرتفع عن الغرائز ، ويرضى بالقضاء ، ويدرك بالمعرفة الإيمانية حقيقة الابتلاء .

٣ــ الفطرة .. لا الحتمية :

ظهر مصطلح الحتمية بشكل واضح فى علوم الميكانيكا .. ثم انتقل الى العلوم الانسانية كالاخلاق ، والتاريخ ، وعلم النفس[2] . وفى علم النفس الغربى ، يخضع السلوك الانسانى لقانون الحتمية الذى يحدد السلوك وفقا للتكوين الطفولى فى السنوات الخمس الأولى من حياة الانسان .. وانتشر هذا المصطلح !

واذا مضينا فى تأملاتنا للقانون الإلهى ، لنستضىء بالمعانى المناسبة[3] والتعبيرات المتكاملة والالفاظ الصالحة ، وجدنا لفظ (الفطرة) كمصطلح ، بديل أفضل وأشمل من مصطلح (الحتمية) فهو أصلح فى التطبيق ، وأطوع فى التعرف على الحقائق ، اذ أن الفطرة موجودة فى الانسان كما هى الناموس الكونى ، فهى تعبير عن الوسط العدل والخير الفاضل .. يقول عز من قائل :

* فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها .. الروم ٣٠
* وما لى لا أعبد الذى فطرنى .. يس/٢٢
* قل أغير الله اتخذ وليا ، فاطر السموات والأرض .. الانعام/١٤ .

هذه الفطرة المشار اليها فى الآيات الكريمة ، تسمح بتجاوز مفهوم الحتمية

(١) نحو منهج إسلامى ، ص ٣٥٨
(٢) كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى ، ترجمة د. عبد الحميد صبره ، ص ١٣٥
(٣) نحو منهج إسلامى ، ص ٣١٩

فيما يتعلق بالسلوك البشرى ، فهى لا تلتزم بقواعده التعسفية التى تجبر الانسان على سلوك معين ، بل هى تفتح الباب للالتجاء الى الله والسير على صراطه المستقيم ، فهو تعالى الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويجعل منها ميلادا جديدا يجب ما قبله ، ليرجع الانسان بعدها الى الجادة والصلاح .. ولهذا كان مصطلح الفطرة كبديل لمصطلح الحتمية رجوع الى الحق ، وربط محكم بين علم النفس وبين الدين ، وطريقا لاثراء أبحاثنا وتقدمها فى طريق العلم والحكمة .

٤ــ الدفع .. لا الصراع :

يعرف فرويد الصراع بأنه : فقدان الشخص الثقة فى قدرته على رفع التناقضات بين القصور المؤلم وبين النفس ، مما ينشأ عنه صراع يؤدى الى محاولة استبعاد القصور المؤلم[1] .. ثم شاع استخدام مصطلح (الصراع النفسى) حتى انتقل الى علم الاجتماع والاخلاق والسياسة .. وأكد أصحاب مدرسة الشخصية بعد انتشار هذا المصطلح ، على أن الصراع النفسى هو المكون الاساسى لبناء شخصية الفرد[1] . لكننا من خلال قول عز من قائل :

* ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. البقرة/٢٥١
* ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعط لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .. الحج/٤٠

نقول بأنه لا يوجد هناك صراع بالمعنى العلمى الحديث داخل النفس ، وإنما هناك ذلك (الدفع) الذى هو موقف اختيارى من الانسان ، فهناك دفع ودفع مقابل ، كما فى قول عز من قائل :

* ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه والى حميم .. فصلت/٤
* ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون .. المؤمنون/٩٦

(١) د. عزت راجح : الامراض النفسية والعقلية ، دار المعارف ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(١) بارتريك ملاهى : عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد ، ص ١٦٥ .

فالدفع هو المصطلح العلمى الصالح للاستخدام ، فهو مرن بدرجة تسمح له بالانسحاب الى النفس والناس والمجتمع ، بحيث لا يحمل معنى التناقض الموجود فى مصطلح الصراع[٢] .

ط٥ــ الرؤية .. لا أضغاث الاحلام :

أهتم علماء النفس الغربيون بموضوع الاحلام ، حتى أن فرويد يعتبر الحلم هو الطريق الملكى لمعرفة النشاط اللاشعورى فى العقل الانسانى ، وانه لغز مصور كمعنى رمزى[٣] .. فالحلم هو نوع من المكبوتات تظهر كرغبة لم تشبع بعد ، وكنوع من الارضاء الخيالى للرائى[٤] .. ثم يذهب يونج الى أن الحلم هو تعويض عن الحياة اللاشعورية فى مقابل الحياة الشعورية التى يحياها الانسان .. ويذهب البعض الآخر الى أن الحلم هو خداع المرء لنفسه[١] .. وهكذا تمضى التأويلات الذاتية الى مالانهاية .

والحقيقة أن ما يبحث فيه هؤلاء العلماء ليس الا وهم شيطانى لا تفسير له ، كما ورد فى الحديث النبوى (الحلم من الشيطان) أما المصطلح الاسلامى الذى ينبغى لنا بحث آفاقه ، فهو : الرؤية .. فان علم النفس الاسلامى يفصل بين الرؤيا والاحلام فى حين يخلط بينهما علم النفس الحديث .

وقد ورد لفظ الرؤية والحلم فى الحديث الشريف (الرؤية من الله والحلم من الشيطان) كما وردت فى القرآن الكريم فى قول عز من قائل :

* يا أيها الملاء افتونى فى رؤياى .. يوسف/٤٣
* قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .. يوسف/٤٤

فهناك اذن فرق شاسع بين الرؤية والحلم .. فهناك الرؤية الصادقة ، وهناك أضغاث الاحلام التى لا يعول عليها ، ويطلق على كليهما لفظ (منامات) وقد

(٢) نحو علم نفسى اسلامى ، نحو منهج اسلامى .
(٣) فرويد : تفسير الاحلام ، ترجمة مصطفى صفوان ، ص ١٢٩ .
(٤) ارنست جونز : التحليل النفسى ، ترجمة د. الشنيطى ، ص ٥٣ .
(١) احمد فؤاد الاهوانى : النوم الازق ص ٩٧ .

قسم الشيخ عبد الغنى النابلسى هذه المنامات الى ثلاثة أقسام : البشرى ، رؤيا التحذير ، رؤيا أمانى النفس[٢] .

ولما كان المجال يضيق هنا عن استعراض اقسام الرؤية وأشكالها وصلتها بالصحة النفسية ، على النحو الذى عرضنا له بشكل مفصل فى كتابنا (نحو علم نفسى اسلامى) فاننا سنكتفى هنا بالاشارة الى أن « الرؤية » التى يمكن تعبيرها وفهمها ، تختلف تماما عن « الحلم » الذى حاول علم النفس الغربى دراسته ، فوقع فيما لا حصر له من الاوهام والظنون .

خاتمة :

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض المصطلحات والمفاهيم القرآنية ، ومقارنتها بالمصطلحات السائدة .. ننتهى الى القول بأنه من الضلال والاضلال أن نتوهم أننا قادرين على اختراع منهج ومفاهيم من غيبيات مفترضة ، ونبتدع من خيالاتنا مصطلحات غير متحققة ، ونتواضع على أسس وقواعد ذاتية ، نحاول بها أن نفهم ونفسر ونتنبأ ونحكم على السلوك النفسى ، زاعمين أن ما ابتدعناه كفيل بالوصول الى الحق واليقين . ولقد هدانا الله الى تحديد العديد من المصطلحات المستمدة من الحقائق القرآنية ، فان كنا قد عرضنا فيما سبق لبعض هذه المصطلحات مما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع ندوتنا اليوم ، فسوف نكتفى بالاشارة الى بعض المصطلحات الأخرى .. فنحن نقول (الاستقامة) فى مقابل الموضوعية ، و (الهدى) فى مقابل الخلق ، و (الحكماء) فى مقابل الفلاسفة ، و (العبودية لله) فى مقابل مصطلح الحرية ، والتفكر .. لا الفكر ، والتسخير .. لا التنبؤ والتحكم ، والبصيرة .. لا الحدس .

وأخيرا .. فان كل ما نزعم من مصطلحات وقوانين نفسية بعيدة عن الهدى القرآنى ، هو وهم واهم ، وظن الظانين .. وقد قال تعالى (ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا) ولقد أوصانا الله باتباع حكمة الدين ،

(٢) عبد الغنى النابلسى : تعطير الانام فى تعبير المنام ص ١ ، ٨ .

وأوصانا ألا نتبع الاهواء ، وأن لا نطع من أغفل الله قلبه عن الرشد .. ولهذا كله ، فنحن نقول كلمة حق : لا يمكن لنا فهم حقائق النفس الانسانية الا بتصحيح المفاهيم الاساسية ، ووضع اصطلاحات مناسبة للمدلولات القرآنية ..

وبالله التوفيق .....

أ.د. حسن الشرقاوى

رئيس قسم الفلسفة ــ كلية الآداب

جامعة الاسكندرية

المراجـــع

١ ــ ارنست جونز : التحليل النفسى ، ترجمة د. الشنطى .

٢ ــ أحمد فؤاد الأهوانى : النوم والاحلام

٣ ــ ايزنك : الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة قدرى حنفى .

٤ ــ باتريك ملاهى : عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد .

٥ ــ حسن الشرقاوى : التربية النفسية فى المنهج الاسلامى .

٦ ــ حسن الشرقاوى : نحو علم نفس اسلامى .

٧ ــ حسن الشرقاوى : نحو منهج اسلامى .

٨ ــ حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة .

٩ ــ حسن الشرقاوى : الفاظ الصوفية ومعانيها .

١٠ــ حسن الشرقاوى ض الطب النفسى النبوى .

١١ــ فرويـد : الموجز فى التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على .
تفسير الاحلام ، ترجمة مصطفى صفوان .

١٢ــ صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى فى الفكر الفرويدى .

١٣ــ سيد غنيم : سيكلولوجية الشخصية .

١٤ــ ك. هوك : نظريات الشخصية ، ترجمة د. احمد فرج .

١٥ــ كارل بوبر : علم المذهب التاريخى ، ترجمة د. عبد الحميد صبره .

١٦ــ عزت راجح : الأمراض النفسية والعقلية .

١٧ــ عبد الغنى النابلسى : تعطير الانام فى تعبير المنام .